الفصل السابع عشر

الكتابة والأدب الآشوري

إنه وبدون الوثائق المكتوبة تبقى معرفتنا عن آشور جزءاً ضئيلاً مما هي عليه الآن، فالبقايا الحية لأمة حضارية من فنونها وأدواتها ومفروشاتها وأساليب الدفن فيها كل هذه من الممكن أن تعرفنا بالشعوب القديمة ولكنها قاصرة عن التعريف الذي يحصل عن طريق النصوص المكتوبة.

لقد اخترعت الكتابة في جنوب منطقة ما بين النهرين في زمن قصير قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، وكانت أقدم أشكالها المعروفة تتألف من صور مرسومة بواسطة قصبة تكتب على قطعة من الغضار الرطب المضغوط الذي كان يضغط بين كفي اليد ليتخذ شكل كعكة مسطحة.

ومع مرور الزمن أصبح شكل الغضار نظامياً كلوح من الغضار مستطيل ذي حواف مستوية أو مدوَّرة أو محدَّبة قليلاً، وكان اللوح صغيراً بحجم علبة كبريت أو بحجم كتاب من قطع الربع مع أنه كان بحجم قطعة الصابون.

وفي أوائل الألف الثالث تعرَّضت هذه الإشارات لبعض التغييرات عندما بدأ الكتبة يضغطون بواسطة قصبة تسمى (قلم السّمة) وذي مقطع مثلث بدلاً من الرسم، وقد أنتج هذا العمل إشارات مؤلّفة من خطوط وضربات مستقيمة (مسمارية) كانت في بعض الحالات تظهر أنها متماثلة مع الأصل، وفوق ذلك ولأسباب متصلة بالطريقة التي كان الكاتب يحمل بها لوح الطين والقلم فقد تحولت اتجاهات رسم العلامات إلى الخلف خلال تسعين درجة، وهكذا وضعت جميع العلامات على ظهرها وهذا أضعف صلة الوصل مع الصور الأصلية.

وفي الشكل الذي اتخذته الكتابة المسمارية أخيراً فقد كانت الكتابة تسير بشكل أفقي عبر اللوح وفي معظم الأحيان (وليس دائماً) موازية محورها الأفقي من اليسار إلى اليمين، وكانت الألواح الأصغر تنقش في عمود مستقل والألواح

obeikandl.com

الكبيرة في عمودين أو أكثر، وعندما كان الكاتب يصل إلى أسفل الوجه الأول كان يقلب اللوح حول المحور الأفقي وليس العمودي أي: إنه لم يكن يقلبه كما نقلب صفحات الكتب عندنا.

ونتيجة لذلك كانت الكتابة على أحد وجهي اللوحة تبدو مقلوبة بالنسبة للكتابة على الوجه الآخر.

كانت الكتابة الأصلية بهذا الشكل تمثّل الكلمات باللغة السومرية وربما كانت اللغة السومرية تمتلك نسبة كبيرة من الكلمات ذات المقطع الواحد فإن هذا قد سمح بإحداث تطور أصبحت به إحدى العلامات المُعينة لا تمثل معنى الكلمة فحسب بل اللفظ الخاص بها، وكانت الحال مثلاً كما لو رسمت صورة نملة **BEC** وبعدها صورة ورقة شجر **LEAF** وهكذا تستعمل هاتان الصورتان لكتابة كلمة **BEIEF** معناها اعتقاد أو ظن.

وإن قيمة هذا التطور أن أصبح بالإمكان استعمال هذا النظام في كتابة اللغات عدا عن اللغة السومرية، وابتداء من منتصف الألف الثالث استعمل هذا النظام في اللغة السامية وهي الأكادية.

وكانت اللغة الآشورية إحدى لهجات هذه اللغة واللهجة الأخرى كانت البابلية، وقد استمدت بعض الإشارات السومرية التي تدل على كلمات كاملة تستعمل في نفس الأسلوب في اللغة الأكادية مثلاً: الإشارة التي تعني ملك التي تلفظ بشكل لوجال في السومرية كانت تستعمل بنفس المعنى في الأكادية مع أنها كانت تلفظ بشكل (سادرو) ولكن أصبحت إشارات كثيرة تستعمل كمقاطع.

ونظراً لحدوث مثل هذا التطور أصبح النص الأكادي مزيجاً من العلامات التي تعني بعضها كلمات كاملة، والأخرى تعني مقاطع، وكانت نسبة وجود كل منها تختلف حسب نوع النص وحسب الفترة الزمنية.

وكانت الألواح الطينية ومع أنها كانت الوسيلة الأعم لتدوين الكتابة المسمارية إلا أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد كان من الممكن تدوين

obeikandl.com

الكتابة المسمارية على ألواح من الغضار مصنوعة بأشكال أخرى مثلاً الأسطوانات الموشورية أو المخروطية أو حتى (بشكل مفتاح لبعض التعاويذ) نماذج من أعضاء حيوانية.

ولكن حدث تطور من نوع آخر وهو استعمال الألواح لكتابة مصنوعة من قطع خشبية مغطاة بالشمع كانت الإشارات تطبع عليها، وكان من الممكن كتابة الإشارات المسمارية عن طريق نحتها بالإزميل على حجر أو معدن، أو أن تطبع على الغضار أو أحياناً كانت الكتابة المرسومة ترسم بالألوان على سطح من السطوح، ولكن في حالات معينة كانت تعتبر مجرد إضافة إلى لوح منقوش بالطريقة العادية.

وكان الغرض الأصلي الذي جعل السومريين يخترعون الكتابة حفظ السجلات والوصولات والبضائع الموجودة في المخازن، ولكن سرعان ما تطور استعمالها إلى تطبيقات أوسع، ففي أوائل الألف الثانية كانت الوثائق البابلية المكتوبة بالخط المسماري تشمل الأساطير والقصص البطولية وأدب الحكمة (أي: النصوص التي تشبه الأمثال التوراتية) والقوانين والملاحظات الفلكية والمسائل الرياضية والسجلات التاريخية وقرارت المحاكم والجداول التاريخية (أي: تتابع السنوات التي يطلق على كل منها الاسم المشتق من الحوادث التي حدثت فيها) والتعليمات الزراعية، وعقود العمل، والوثائق الإدارية والنصوص المستعملة في العبادة والطقوس المستعملة لأغراض السحر، وسلسلة من التعاويذ والتمارين المدرسية اللازمة للكتبة المتمرنين والمعاهدات الدولية والقواميس التي يدعوها المهتمون بالتاريخ الآشوري باسم جداول المترادفات، وكذلك الدراسات في قواعد اللغة السومرية، وألوف الرسائل الموجهة لأشخاص عاديين أو إلى الملوك وحتى الآلهة.

ولقد ساهم الآشوريون في تراث السومريين، وكانت معظم أنواع النصوص التي وجدت في آشور وجميع الكتابات الأدبية كلها أخذت من بلاد بابل ولكن

obeikandl.com

كان هناك بعض الاستثناءات وكان اثنان من هذه ذات أهمية لا بأس بها بالنسبة لمعرفتنا بالتاريخ الآشوري.

المخطوطات الآشورية الملكية

كانت المخطوطات الملكية الآشورية تمثل أشهر الأشكال الأدبية التي تطورت في آشور وابتداءً من زمن السومريين في جنوب منطقة ما بين النهرين في الألف الثالث ق.م.

لقد كتب الملوك مخطوطات لها علاقة بالنذور أي: المخطوطات التي تسجل تكريس بعض الأشياء المقدمة للإله أو تصنع لأجل الآلهة، وكانت مثل هذه المخطوطات تتخذ أشكالاً مختلفة بسيطة أو معقدة، ولكن العنصر الأساسي كان تحديد شخصية الملك والتعريف به وذكر الهدايا أو الأعمال الخيرية والمناسبة التي حصل فيها الإهداء، ومع مرور الزمن حدثت تطورات قد أنتجت أخيراً الإطار النهائي الآتي:

أ- اسم الملك، ألقابه، وعلاقاته الخاصة بالآلهة.

ب- ذكر الحوادث التي تثبت النقطة الزمنية.

ج- ذكر أعمال الخير: عادة عملية بناء.

إن العنصر (ب) يقدم الوسيلة التي يستطيع فيها الملك أن يشير إلى الأشياء الأخرى التي قام بعملها لمرضاة الآلهة، ففي آشور بعد أن تطورت الفكرة التي مفادها أن الإله آشور ادَّعى السيطرة على العالم أصبحت رواية حملات الملك لمرضاة الإله مناسبة لتلك النقطة.

وهكذا وابتداء من عام ٣٠٠٠ ق.م بدأ الملوك الآشوريون (وليس ملوك بابل) يطورون هذه النقطة فأصبحت تمثل وصف ما كان الملوك يفعلونه في المجال العسكري، وبعد قبول هذه الممارسة فقد فتح هذا إمكانات معتبرة لتمجيد الملك لنفسه، وقد تطور هذا ليصبح شكلاً تكلم فيه الملك بضمير المتكلم مباشرة ويذكر كل ما فعله في المجال العسكري أثناء حكمه ويصلح للتأريخ، ويمكن

openkanon.com

ترتيب التفاصيل بعدة طرق إما عن طريق المناطق منطقة بعد منطقة أو عاماً بعد عام.

وإن ترتيب التفاصيل بعام بعد عام من الممكن أن ندعوها حوليات إنما حدثت في آشور في زمن تغلات بيلاسر الأول (١١١٥-١٠٧٧) ولقد اقترح أن هذا النوع مدين إلى الحثيين ولكن ليس هناك ما يشهد لدعم هذا الرأي عدا الحقيقة التي مفادها، أن الحثيين كانوا يملكون نصوصاً بشكل حوليات في فترات أقدم، ومع أننا نفكر أن هذه النصوص من هذا النوع هي نصوص تاريخية، إلا أنها كانت سابقاً لا تزال نقوشاً تعليمية تنتهي دوماً برواية مناسبة عن عمل خيري من العادة أن يكون بناء معبد أو قصر.

ومع أن هذه المخطوطات كانت مثيرة ولذيذة بالنسبة لنا، إلا أن معظم هذه المخطوطات لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون مخصصة للبشر قطعاً أو أن يراها البشر، وذلك لأن كثيراً منها قد كتبت على أسطوانات أو مخاريط ودفنت في أسس بناية يصفون عملية ترميمها بحيث لا يراها إلا الآلهة.

وقد كان من المعروف أن ليس هناك من بناية دائمة البقاء وأنه فيما بعد سوف يعمد بعض الملوك الأنقياء إلى الحفر وحتى أساسات البناية وعندها سوف يجدون المخطوطات ويقرؤونها، وكان هناك صيغة نظامية مكتوبة في نهاية كثير من المخطوطات الملكية وهي تغطي هذه المناسبة:

((في الأيام القادمة إنني أوصي أي ملك من الملوك من أبنائي وأحفادي الذين أعلن الإله آشور أنه قد نصبه ليرعى البلاد والشعب، إنني أوصيه أنه عندما يصبح هذا القصر قديماً وعلى وشك السقوط أن يعيد ترميمه، وأن ينظر إلى النقوش التي كتبت وتحمل اسمي وأوصيه أن يدهن هذه النقوش بالزيت وأن يريق الخمر عليها تكريماً، وأن يعيدها إلى مكانها، عند ذاك سوف يسمع الإله آشور صلاته)).

لم تكن جميع المخطوطات الملكية مدفونة تحت الأرض إذ إن بعضها كانت منقوشة على ألواح نافرة موضوعة فوق جدران القصور، والأخرى كانت منحوتة

على التماثيل الحجرية الملكية التي تمثل الثيران والأسود والتي كانت تحرس بوابات المدينة.

وبعضها كانت منحوتة على الأنصاب الملكية المقامة على الحدود النائية لكي تخلد ذكرى الانتصارات الآشورية التي حدثت هناك، ولم تعد بعض هذه النقوش من هذه الفئات مجرد نقوش للبناء في شكلها، بل قد تجاوزت الأطر الأصلية وأصبحت نصوصاً مختصة لتمجيد مآثر الملك، وربما تكون هذه التطورات قد حدثت كنتيجة لوجود هذه الأنصاب نفسها أو لوصف بعض أنشطة الملك نظراً لأنها كانت تعتبر من الأعمال الدينية الخيرية المقامة على شرف الآلهة تضاهي في قيمتها المعنوية بناء معبد أو ما شابه ذلك، ونحن نرى إمكانية صحة هذه التفاسير بوضوح في بعض النقوش المنحوتة على بعض التماثيل الهائلة التي تمثل الأسود والثيران التي أقامها آشور ناصر بعل.

وكان القسم الأعظم من هذه النصوص يمثل إطراءً وتمجيداً للملك عند قيامه بحملة حربية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن قبل أن ينتهي النص ينتقل الملك فجأة من الشؤون العسكرية إلى الإدِّعاء أن الإله نينوترا ونيرجال قد أوكلاه برعاية شؤون الحيوانات، وأمراه أن يصطاد هذه الحيوانات وسرعان ما ينتقل النص لذكر مجموعة من الفيلة والثيران البرية والأسود التي قتلها الملك، ويبدو أن هذا كان تكريماً ضمنياً للآلهة بالنسبة لصيد الحيوانات البرية.

ومن الممكن أن نفترض أن الغرض من إقامة نصب منقوش وعرضه في مكان عام أن يقرأ جميع البشر هذه النقوش بصورة عامة وبإسهاب، ولكن ولو وضعنا النصب في وسط مدينة آشور المكتظَّة فإن ذلك يظل مستحيلاً لأن المتعلمين الذين يستطيعون القراءة هم أقليّة صغيرة، ولكن حينما تذهب الأنصاب في الحدود الشمالية والشرقية البعيدة حيث السكان جهلة بالنسبة للغة الأكادية التي كتبت بها النقوش، ما عدا بعض الضباط في الأقليات الآشورية المبعثرة، فإن إمكانية قراءة السكان لمثل هذه النقوش تكون أقل، ولكن لو كان المقصود بهذه النقوش تذكير الشعوب المغلوبة بعظمة آشور، فإن الملك الآشوري سيكتب هذه

openkanar.com

النقوش بلغتين أي: الأورارتية والأكادية وذلك كما فعل أحد ملوك اورارتو في إحدى المناسبات.

وبالنسبة للنقوش النافرة المتواجدة في القصور الآشورية، فلم يطلع عليها سوى عدد من موظفي القصور، وبعض الموظفين من الزوار والأجانب المرموقين.

جداول ليمو

هنالك نوع ثان من النصوص ذات بعض الأهمية التاريخية التي تطورت داخل آشور وهذه ما تدعى (جداول ليمو).

وقد كان اسم ليمو يعني: الموظف المسؤول عن إقامة المراسيم الحكومية الدينية في مدينة آشور، وقد كان الملك والموظفون الكبار في الدولة يخدمون بشكل (ليمو)، بالدور كل منهم لمدة سنة واحدة، الملك في أول سنة من سنوات حكمه، والآخرون يتبعون ترتيبات تتم بالقرعة، وفيما بعد حسب الترتيب في المكانة في السلطة.

وقد كانت هذه السنة تعرف رسمياً باسم الليمو الذي خدم فيها، وهكذا كانت جداول الليمو تشير إلى تتابع السنوات.

هناك عدة أشكال من قوائم الليمو بعضها كان يقتصر على أسماء الموظفين، بينما كانت الأخرى تذكر الاسم وبعده أسماء الولايات التي خدم فيها الموظف بالإضافة إلى نبذه قصيرة عن الحملة التي قام بها أو أي حادث آخر.

obeikandl.com

وفي ما يلي سنذكر مقتطفاً قصيراً من القائمة التي تتحدث عن السنوات التي كانت سابقة أو لاحقة لاعتلاء الملك تغلاي بيلان العرش:

بالنسبة لليمو نغرال – ناصر	**والي نقيبين**	**نمرد في كانح**
بالنسبة لليمو نابو يعل آشور	**والي أرنبيما**	**في الثالث عشر من أيار اعتلى تغلان بيلاير العرش ، وفي تشرين ذهب إلى منطقة بين الأنهار إلى الشمال الغربي من منطقة ما بين النهرين .**
بالنسبة لليمو نابو يعل آشور	**والي كالخ**	**إلى نامري**
بالنسبة لليمو تغلان بيلامر	**ملك آشور**	**إلى أرباد انتصر على أورارتو**
بالنسبة إلى ليمو نابو داني – نانى	**والي تورنان**	**إلى أرباد**

هذا ، وإن القطع المتناثرة من جداول ليمو تتداخل فيما بينها ، وهذا يساعد على إعادة ترتيب أجزائها مدة (٢٦٤) عاماً متتابعاً ، ولحسن الحظ أن إحدى فقراتها تشير إلى الحادث التالي:

(في شهر سوان "حزيران" حدث كسوف الشمس).

والآن ونظراً لأننا نعلم وبشكل تقريبي السنة التي حدث فيها هذا الحادث عندها يستطيع علماء الفلك أن يحسبوا بدقة في أي سنة رؤي كسوف الشمس في آشور في شهر حزيران، ويظهر أن هذه السنة هي سنة (٧٦٣ ق.م).

هذا ، وبعد تأكيد هذه السنة يمكن تأريخ السنوات إلى (٢٦٤) في هذه السلسلة ، وبذلك يصبح التاريخ الآشوري خلال هذه الفترة دقيقاً جداً.

obeikandl.com

وإن ملاحظة وتدوين الحوادث كل عام ولو كان باختصار يعطينا إطاراً تاريخياً ثميناً لتلك المرحلة التي تبلغ قرنين ونصف، ولكن ليس كلها تماماً نظراً لأنه بالنسبة لجزء من هذه الفترة فإن جداول ليمو قد حفظت أسماء الموظفين فحسب.

تقارير على التنجيم

هناك قسم ثالث من النصوص المتعلقة بآشور كان غير ذي علاقة مباشرة بالتاريخ وهذه النصوص تختص بالتقارير التنجيميَّة التي ذكرت عنها بعض الأمثلة.

ولكن علم التنجيم لم يكن معروفاً أبداً في بابل، ولكن في الألف الثالث بالتحديد عرفت في آشور فقط تقارير تنجيميّة من هذا النوع وكانت تقدم بشائر عن الفأل بالنسبة لخير ورفاهية الدولة.

المواحي

وجدت بعض النصوص التي تعود إلى الألف الأول ق.م في آشور وهي تحمل رسائل تختص بخير البلاد ولكنها تتألف من تقنيات مختلفة، فهي ليست آشورية صحيحة، نظراً لأن هناك أمثلة منها في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم وبما في ذلك التوراة ولكن بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت هذه منقولة من آشور، وحتى في آشور لم تكن شائعة والنصوص التي نعنيها تختص بالمواحي التي يصدرها أشخاص ملهمين وعادة كنَّ نساء من اللواتي كن يدعين أنها رسائل موجهة إلى الملك من أحد الآلهة وفي ما يلي مثال ممّا تقوله المواحي:

(لا ينبغي أن تخاف يا أسرحدون، إنه أنا الإله الذي يتحدث إليك، وقد فتشت في أعماق قلبك مثل والدتك التي وهبتك الحياة، هناك ستون إلهاً عظيماً يقفون معي لحراستكم فالإله (سن) واقف بجانب يدك اليمنى، والإله شمش واقف

بجانب يدك اليسرى، وهناك ستون إلهاً آخرون يقفون حولك وهم يطوقون الإعصار.

لا تثق بأي إنسان بل وجه عينيك إلى جهتي انظر إلي.

أنا عشتار إلهة أربيل ولقد وهبتك عشتار الهناء.

وعندما كنت صغيراً حملتك بين يدي لا تخف بل احترمني.

الرسائل

إن معظم أنواع الكتابات التي وجدت في آشور كانت مأخوذة من بابل، وكان هو الحال بالنسبة لمعظم النصوص التي من الممكن اعتبارها أدباً بالمعنى الضيق، أو الأمثلة التي كانت حولها من أنماط آشورية ولكنها مأخوذة من نصوص معروفة بشكل جيد من بابل، هذا وإن أهم الأمثلة من الفئة الأخيرة وعلى الأقل بالنسبة للمعلومات التي يقدمونها لنا وهي الرسائل، إذ هناك بعض من هذه الرسائل قد أتت من الفترة الآشورية القديمة (وهي تبدأ اعتباراً من الألف الثاني) وقد وجدت بين بعض الوثائق التي أتت من كلاه وكيا.

وهناك بعض الرسائل الخاصة المرسلة من عدة مواقع تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (وهي نهاية الألف الثاني) وهناك مجموعات من الرسائل المرسلة من كلاه شيرجات (آشور القديمة) ومن تل حلف (جوزين القديمة) ومن نمرود (كالاخ القديمة) ومن (كويونيجيك) (نينوى القديمة) هذا وإن العدد الأكبر منها الذي يبلغ حوالي ألفين أرسلت من (كويونيجيك) بالإضافة إلى حوالي مئتين من نمرود، ويرجع تاريخ المجموعتين الكبيرتين إلى القرن الثامن والقرن السابع ق.م أما الأخرى فهي أقدم قليلاً.

ومع أن هذه المجموعات تحتوي على بعض الرسائل الخاصة إلا أن الباقي كانت عبارة عن مراسلات تخص الدولة، ومعظمها كان مرسلاً إلى الملك وقليل منها مرسل منه، وبالنسبة إلى الرسائل من الفئة الأخيرة، فإن الألواح التي نملكها

obeikandl.com

ينبغي أن تكون نسخاً احتفظ بها للحفظ وذلك نظراً لأن النسخ الأصلية ينبغي أن تكون قد غادرت العاصمة وأرسلت إلى الأشخاص من المعينين في الولايات.

وقد كانت الرسائل الموجهة للملك مؤلفة من فئتين إحداهما تتألف من رسائل أرسلها خبراء الملك وتختص بالسحر والغيبيات، وقد فسر هؤلاء المتعلمون كثيراً من علائم الفأل للملك وأخبروه متى يمكنه فعل بعض الأشياء ومتى لا يمكنه ذلك، نظراً لأنه كان شديد الإيمان بالخرافات، وسوف نورد مثالاً أو مثالين يعطياننا فكرة عن محتويات تلك الرسائل:

((إلى سيدي الملك من خادمك عشتار - شم – أيديسن أرجو أن يكون سيدي بصحة جيدة وأرجو أن يباركك يا سيدي الملك الإله نابو والإله مردوخ يا سيدي.

وبخصوص معبد الإله ناشوخ الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة بخصوصه قائلاً:

اختر يوماً يكون ذا فأل حسن واكتب لي كيف تسير أمور بنائه.

وأنا أقول إن شهر حيوان (حزيران) مناسب واليوم السابع عشر منه أيضاً مناسب، ومع ذلك فإن هذا الشهر قد انتهى وذهب وهكذا متى سوف يقدرون عملها تمام العمل؟

إن أيلول شهر جيد وهو الشهر المناسب لهذا العمل، دعهم يعملونه ودعهم يبدؤون بالعمل خلال ذلك الشهر)).

وهناك رسالة تعتبر مثالاً عن الفأل الحسن وهي تعود إلى فترة تنصيب ملك بابل، إذ عندما حذر الملك بالفأل السَّيئ أخطر للانسحاب واتخذ لقب مزارع بشكل مؤقت بينما حكم حاكم بديل بالنيابة عنه، وبعدها استقال ذلك البديل وهنا نورد النصف الأول من هذه الرسالة:

((إلى سيدي المزارع من خادمك نابو - زر - ليشر أرجو أن تكون بصحة جيدة يا سيدي، وأرجو أن يباركك الإله نابو والإله مردوخ مدى السنين الطويلة.

obeikandl.com

لقد كتبت لك جميع البشائر بعددها مهما كان سواء كانت من السماء أم من الأرض أو المواليد بشكل وحوش وقد ردَّدتها الواحدة تلو الأخرى أمام إله الشمش، لقد جعلتهم يطبخون ويأكلون الطيور المحضَّرة بالنبيذ والتي غُسلت بالماء ودهنت بالزيت، أما الملك البديل فقد اتخذ لنفسه نذر بلاد أكاد)).

وأما الفئة الثانية العريضة من الرسائل فقد كانت مرسلة من الموظفين الإداريين إلى الملك، ومعظمهم من الولاة وآمري الحاميات العسكرية، وكانت هذه الرسائل تتضمن الحديث عن أي شيء مع أنها كانت تعطي تفاصيل المخابرات العسكرية أو تفاصيل عن الأعمال العسكرية، وحركات أسرى الحرب، وجميع مجموعات الخيول لمصلحة الجيش وأمور الخصومات التي تحدث بين الموظفين.

الوثائق الاقتصادية

هناك عدة أمثلة آشورية عن مثل هذه النصوص التي كانت واسعة الانتشار وخلال منطقة ما بين النهرين في جميع الأوقات، وكانت عناوينها تحتوي محتويات فضفاضة تغطي عدة فئات متميزة، ولكن هناك مبررين اثنين لاستعمالها:

أحدهما: إن أهم ما نشر من النصوص الآشورية الجديدة من هذه الفئات قد عولج بشكل جماعي.

أما السر الثاني: فهو أن الألواح الاقتصادية العائدة لكثير من الفئات المختلفة كانت مخزونة لدى الآشوريين أنفسهم، واعتبرت جزءاً من قضايا شخصية خاصة، وتشمل أنواعاً من هذه النصوص التي تندرج تحت هذا العنوان العريض، مع أشياء أخرى كالآتي:

وثائق الأراضي التي منحها الملك، ووثائق بيع (الأراضي، والبيوت، والعبيد) وعقود الزواج واتفاقات التبني، وتقسيم الإرث، وعقود القروض (بيع الشعير، والفضة، والبرونز) والإيصالات عقود العمل (الحصاد، وبناء البيوت) وقرارات

المحاكم وقوائم الأجور، وفي بعض الحالات وبعض الفترات الزمنية كانت وثائق العقود تحفظ من التغيرات والتبديلات بشكل غير قانوني فقد كانت هذه الوثائق تحفظ في ظروف من الطين والفخار، وكان الظرف منقوشاً بمحتويات العقد أو خلاصة تلك العقود، وفي حالة نشوء خلافات كانت الظروف تكسر للكشف عن محتوياتها.

القوانين

كانت أول مجموعة من القوانين المدونة تعود إلى القرن الثامن عشر وإلى حمورابي ملك بابل، ولكن هناك مجموعات أخرى من بابل ولدينا أمثلة من آشور، ولقد اكتشفت مجموعتان من قوانين آشور في العصر المتوسط في مدينة آشور وكانت واحدة منهما تختص بامتلاك الأراضي والأخرى تختص بالنساء.

وبعكس قوانين حمورابي فلم تكن هذه مكتوبة بشكل قرارات اتخذها الملك بل كانت عبارة عن ملابسات حصلت مع رجال القانون (الذين كانوا يعملون ضمن إرشادات الملك) وتتضمن الممارسات القانونية التقليدية في مناطق معيَّنة.

ومن المهم أنه لم يعثر على أي آثار من هذه القوانين في مكتبة كيونيجيك الكبيرة المحتوية على نصوص تعود إلى القرن السابع ق.م، ومن الممكن أن يكون هذا ناتجاً عن المصادفة ولكن ليس هذا محتملاً نظراً لوجود كميات هائلة من محتويات المكتبة، وحتى التي كانت بشكل قطع مكسورة، وكانت الملابسات هي أنه مهما كان غرض تأليف القوانين في الفترة الآشورية المتوسطة، إلا أنها لم تكن تخدم كمجموعة كاملة مكتوبة للقوانين الوطنية التي كانت تستعمل كأساس للقرارات القانونية.

ولم تكن هذه القوانين أيضاً جزءاً نظامياً من منهاج الدراسة الذي يدرسه الكتبة، وإلا فمن الواجب أن نكون قد وجدنا أمثلة متأخِّرة عنها وهي بشكل تمارين نسخت لاستعمال الطلاب (شأنها شأن نصوص أخرى).

النصوص المقتبسة من بابل مباشرة

إن الفئات التي ذكرت حتى الآن إما أنها قد تطورت في آشور أو أنها صنعت في آشور على غرار النماذج البابلية، ولكن عدا عن هذه فإن أغلبية النصوص التي وجدت في آشور كانت مقتبسة من بابل بشكل مباشر، وإن أكثر الأمثلة التي تؤيد هذا القول هي مجموعة من النصوص التي وجدت في المكتبة الملكية في نينوى التي اكتشفت عندما كشفت الحفريات عن كويونيجيك في القرن الماضي، وقد جلبت هذه النصوص إلى المتحف البريطاني، والحقيقة أنه كان هناك أكثر من مكتبة نظراً لأن بعض التذييلات ذكرت أن النصوص قد وضعت في القصر، وفي تذييلات أخرى ذكر أن النصوص تنتمي إلى مكتبة المعبد في نابو.

ولذلك ونظراً لأنها كانت تحت سيطرة ملك واحد وأنها جميعها الآن موجودة بشكل المجموعة نفسها في المتحف البريطاني لذلك فمن المناسب أن نعالجها كوحدة منفردة، وقد رتبها العالم الألماني كارل بيزولد **Carl Bezola** بشكل خمسة مجلدات عنوانها ((فهرس الألواح المسمارية في كويونيجيك)) ومجموعاتها موجودة في المتحف البريطاني (١٨٩٨-١٨٩٩).

وهناك عدد كبير من القطع المتناثرة لم تضبط في أي بيان أو فهرس، وإن المجموع النهائي لهذا الفهرس يبلغ ٢٥٠٠٠ أو أكثر ولكن ونظراً لأن كثيراً منها كانت عبارة عن قطع مكسورة وليست ألواحاً كاملة لذلك يتناقص العدد إلى (٥٠٠٠) وفي بعض الحالات فإن ألواحاً عدة تكرر النص ذاته ولهذا فإن العدد المقدر ينحصر ما بين ١٠٠٠-١٢٠٠ لوحٍ.

ولقد وجدت مكتبات أصغر تحتوي على نصوص مسمارية في مواقع آشورية أخرى ولاسيما في مدينة آشور وكالاخ، وأيضاً في موقع سلطان تيب (حوزيرنيا القديمة) قرب حرَّان في جنوب شرقي تركيا، ولقد نشرت أعداد كثيرة ثبتت أهميتها بالنسبة لمعرفتنا بالشؤون الطقوسية في آشور مع أنها تشير إلى مظاهر أخرى من الحياة الآشورية أيضاً.

obeikandl.com

ولذلك فإننا نعتبر أن القوانين الآشورية في الفترة المتوسطة قد أتت من آشور، هذا وإن المجموعة التي وجدت في كالاخ إنما تؤلف مكتبة معبد الإله نابو الذي كان يحتوي على مكتبة أيضاً نظراً لأنه كان هو إله الكتبة، ولكن هذه لم تنشر بعد، ما عدا استثناءات قليلة أما نصوص (سلطان تيب) التي نشرت في مجلدين فهي تحتوي على كثير من المادة الأدبية. لم تأتِ جميع الألواح والقطع المتناثر المسجلة في فهرس كويونيجيك في المتحف البريطاني لم تأت من مكتبة نينوى أو من نينوى نفسها على الإطلاق.

إذ لم تشمل وسائل الحفريات في القرن التاسع عشر أي تسجيلات دقيقة حول البقعة التي وجد فيها كل لوح مسماري، وبالنسبة لموقع مساحته حوالي مائة فدان ويحتوي على عدة قصور، فليس من الضروري أن نفترض أن جميع الألواح التي وجدت قد أتت من نفس البناية.

والحقيقة أننا نعلم من محتويات الألواح أن بعض تلك الألواح التي أظهرت ضمن مجموعة كيونيجيك قد أتت من أحد المواقع غير موقع كيونيجيك، ولكن هناك مثلاً عدة ألواح يرجع تاريخها إلى قرن من الزمان بعد سقوط نينوى.

ولكن حتى ضمن الأكثرية الهائلة التي أتت بالتأكيد من كيونيجيك إلا أن هناك البعض التي ظهر أنها ليست من مكتبة آشور بانيبال.

وإن معظم الرسائل الرسمية من المحتمل أن تكون ضمن بعض المحفوظات الرسمية الظاهرة من المكتبة، وإنه ومن المؤكد أن المكتبة الوطنية الملكية لا يمكن أن تكون مأوى تلك الوثائق الاقتصادية التي كانت تعالج قضايا مثل عقود بيع خاصة بالعبيد أو البيوت، وعقود تختص بالحصاد وما شابه ذلك، ولقد تعززت هذه الاستنتاجات عن اكتشاف وثائق اقتصادية مشابهة في نينوى في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م) في منطقة بعيدة عن تلك القصور.

ومع ذلك فإن معظم الألواح التي وجدت في مجموعة كيونيجيك لم تكن تنتمي إلى القصر الملكي أو المكتبات الملكية في نينوى.

إلا أننا نعلم شيئاً عن أحد هذه المكتبات وهذه المعلومات أنها كانت بفضل آشور بانيبال، مع أن النواة تعود إلى أسلافه الذين صنع بعضهم بعض المجموعات من الألواح.

وابتداءً من حوالي ١١٠٠ ق م لقد أسس تغلات بيلاسر الأول مكتبة في أحد المعابد في مدينة آشور قد عرف حوالي المائة من الألواح فيها من اللقيات التي وجدت هناك.

ولكن لا يُشك أن مجموعة آشور بانيبال في آشور هي أعظم جامع للألواح، ولقد نشرت أنشطته المختصة ليس بذكر اسمه في نسبة كثير من الألواح التي وجدت في نينوى فحسب، بل عرفت أيضاً عن طريق إحدى الرسائل التي كانت تعالج هذه القضيَّة، والرسالة هي كما يلي:

((هذا أمر ملكي إلى كودورانو: آمل أن تكون بخير، وأن تكون مسروراً في اليوم الذي يقع بصرك فيه على هذا اللوح، خذ تحت إمرتك (عدة أشخاص سماهم، والخبراء في الكتابة من بورشيبا – وهي مدينة قرب بابل) وفتش عن جميع الألواح التي سوف تجدها في البيوت، والألواح المتواجدة في (ايزيدا) وهو المعبد الرئيسي في بورشيبا والتي إلهها هو نابو.

وبعد ذلك تستمر الرسالة الملكية وتذكر بعض النصوص سلسلة من النصوص التي كان يرغب الملك في إيجادها، وهذه كانت تشمل سلسلة من المعارك بالإضافة إلى الألواح التي تنتمي إليهم مهما كان العدد.

مثلاً: النصوص الطقوسية من نوع الصلاة التي تدعى: "رفع اليد" والنصوص التي تدعى: "النقوش على الأحجار" و:"ما هو مفيد للملك".

وتستمر تفاصيل تعليمات الملك كما يلي:

((فتش عن وأرسل لي أي ألواح نادرة من الألواح المعروفة لديك وهي غير موجودة في آشور....

obeikandl.com

وينبغي أن لايستنكف أحد عن إظهار الألواح التي تطلبها، وإذا هناك أي لوح أو أي طقوس لم أذكرها في حين أنك تجد هذه الألواح مناسبة لقصري عندها احصل عليها وأرسلها لي)).

ومع أن هذا الأمر الملكي لم يحتوِ على اسم الكاتب (ولا تشير الوثائق إلى ذلك) إلا أن ذكر آشور لا يبقي مجالاً للشك أن هذه الكتابة هي كتابة الملك الآشوري، وإن مظاهر اللغة تظهر أن هذه الرسالة قد كتبت قبيل سقوط الإمبراطورية الآشورية، ولهذا فإن الملك المقصود معرفته هو آشور بانيبال.

وتظهر محتويات الرسالة السبب الذي جعله يجمع هذه الألواح، ولهذا فإن الفئات التي تقع تحتها هذه الألواح تعاويذ الفأل، والطقوس والصلوات والابتهالات وكان لهذه النصوص أهمية خاصة.

فقد كانت الحياة على الأرض مغطاة بظلال ما وراء الطبيعة التي كانت تأثيراتها تدل على عدم التنظيم مثل قضية الخط، وليس هناك من شخص يهتم بهذه الأشياء إلا الملك وهو تجسيد للدولة، ففي أي وقت ربما تحدث المصيبة، ولكن إذا تمت قراءة علاماتها كما يجب فإن إنذاراً سوف يتم إعطاؤه لإظهار الأخطار القادمة، وهكذا فسوف تُتخذ خطوات وتدابير سحرية للتخلص منه، وهكذا فقد أظهرت نصوص الفأل أن هناك خطراً يهدد الدولة وليس هناك سوى الطقوس والابتهالات والصلوات، القادرة على تقديم وسائل للتغلب على هذا الخطر.

في هذه الرسالة كان من الواضح أن آشور بانيبال قد صادر الألواح الموجودة في معبد بورشيبا وقد وجدت ألواح كان مصدرها بابل (لكونها متميزة عن النسخ المأخوذة من ألواح بابلية) في مكتبته، وكان هناك أشياء أخرى أخذها من العواصم الآشورية القديمة وهي مدينة آشور وكالاخ، ولكن العدد الأعظم من الألواح الموجودة في مكتبته (أو بشكل أدق في مكتباته) قد نسخت بشكل خاص خدمة له.

obeikandl.com

ونحن نعلم مثل هذه التفاصيل من التذييلات، فالتذليل إذا قصد به اللوح المسماري ما هو إلا تصريح مكتوب في النهاية يقدم بعض التفاصيل حول أحد الألواح، وأما تلك التي استعملها آشور بانيبال فهي واقعة ضمن ثلاثة وعشرين نموذجاً وهناك ثلاثة أمثلة كما يلي:

((آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي، ملك الجميع، ابن اسرحدون ملك آشور وهو ابن سنحاريب الذي كان هو أيضاً ملك آشور، لقد كتبت هذا اللوح وأنا بصحبة خبراء في كتابة الألواح وكتابة الألواح الأصلية من بلاد آشور وسومر وأكاد (أي: بابل) فحصتها وراجعتها ثم وضعتها داخل قصري لاستعمالي الملكي الخاص، إنني أدعو على أي شخص يمحو اسمي ويكتب اسمه بدلاً من اسمي أن يمحو نابو الكاتب العالمي اسمه أيضاً)).

والمثال الثاني يمثل أطول نوع من الأنواع التي وجدت:

((أنا آشور بانيبال، ملك الجميع، ملك آشور الذي وهبني نابو وتاشميتو (زوجة نابو) الذكاء (في الأصل أذناً واعية) ووهبني عيوناً صافية لأرى فيها أثمن أخبار المعرفة، أنا الذي من بين الملوك الذين سبقوني ولم يفهم هذه الأمور غيري، لقد كتبت على الألواح حكمة نابو أو رسم العلامات المسمارية مهما كان عددها وبعدها فقد فحصتها وقارنتها وقد وضعتها في مكتبة معبد سيدي الإله نابو السيد الأعظم، تلك المكتبة التي هي في نينوى وذلك حفظاً لحياتي وحراسة روحي بحيث لن يصيبني المرض، وكذلك لتأمين وتقوية أسس عرشي: أيها الإله نابو انظر إليَّ نظرة عطف وحبور وبارك مملكتي، وخذ بيدي كلما دعوتك وأرجوك أن تبارك خطواتي وأنا سائر في بيتك ومعبدك، وعندما أضع هذه النصوص في معبدك وأمامك انظر إليها وتذكرني بعطفٍ وحنان.))

إن هذا التذييل يكشف لنا أشياء كثيرة فهو يوضح أن اهتمام آشور بانيبال بالألواح لم يكن لمجرد الحماس الأدبي بل كان فيه عنصر ديني قوي، فلم تكن النصوص أدباً بقدر ما هي نص من نصوص الكتب المقدسة، وذلك بما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ لها علاقة بالأسس التوراتية فهي تحتوي على حكمة نابو، وهذه

obeikandi.com

النصوص القديمة كانت كلمات مقدسة أيضاً، وهذا هو السبب في ورود التأكيدات والتذييلات بوجوب فحص ومقارنة هذه النصوص بالنصوص الأصلية التي كانت تحمل الأشكال القديمة.

وحتى عندما كانت التذييلات مختصرة جداً إلا أنها كانت تشير إلى التطابق مع النص الأصلي كما هو الحال في المثال الآتي:

لقد كُتب وقُورن طبقاً

لكلمات اللوح الأصلي من كوثاه.

هذا وإن الاهتمام الذي ظهر في التذييلات التي ذكرت لتأمين مصداقية ألواح هذه المكتبة ينبغي أن تكون قد عكست نظاماً بارعاً من أنظمة ترتيب المعلومات.

دعمت وجهة النظر هذه بوجود فهارس لعناوين النصوص، ولسوء الحظ ونظراً لعجز علماء الآثار القدماء عن تسجيل الأمكنة التي وجدت فيها هذه الألواح والتفاصيل المرفقة بها إذ ليس لدينا أي معرفة من الدرجة الأولى عن كيفية خزن هذه الألواح في مكاتب نينوى.

ومع ذلك فقد ملأت الحفريات التي حصلت في نمرود هذه الثغرة، فقد أتت الرسائل الرسمية التي وجدت هناك من أرض غرفة في البناء الواقع هناك والمعروف بالقصر الشمالي الغربي، ولا تزال الحاويات التي حفظت فيها هذه الألواح ترى هناك.

وكانت هذه الحاويات بشكل صناديق يبلغ حجم الواحد منها قدماً مكعباً ونصف قدم، وهي مصنوعة من الآجر المشوي الكبير، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون ألواح مكاتب آشور بانيبال قد خزنت بنفس الطريقة.

إن أنواع النصوص التي وجدت في مكاتب آشور بانيبال تعطينا دلالات عن وجود أدب تعليمي مدرسي ربَّما كان من أصل بابلي وهو مستعمل في آشور، ولا يقدم لنا الاستعراض التالي قائمة مستفيضة بل هو يدلّ على بعض الأصناف الأساسية للنصوص.

obeikandi.com

وأما الأصناف الموصوفة من قبل في أول هذه الكتب فلم تذكر مرة ثانية ما لم يكن هناك نقطة خالية ينبغي ذكرها حول هذه الأصناف.

نصوص تعاويذ الفأل

كان أكبر فئة من فئات النصوص التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال مختصة بالفأل، وقد قدِّر أن أكثر من ربع المجموع المقدر بـ ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح كانت من هذا النوع.

ولقد شكلت قضية ملاحظة ومعرفة الفأل في الثقافة البابلية والآشورية جزءاً هاماً بارزاً من هذه الثقافة.

فقد كانت وسيلة يستطيع بها الملك أو أي شخص عادي أن يعرف مسبقاً أي حوادث سيئة تنتظره بحيث يستطيع القيام بالخطط اللازمة لتجنب النتائج الخطرة.

ولقد نشأ في دولة آشور في الألف الأول شكل من أشكال التغييرات وهو استعمال النصوص الأثرية، ولقد أنتجت بابل ومن وقت مبكر أنواعاً أخرى كثيرة وهي الأصناف التي ذكر أكثرها في مكتبة آشور بانيبال.

وإن قضايا الفأل يمكن ملاحظتها في عدد واسع من الحالات والظروف مثلاً: ظهور عدد كبير من النمل أو الكلاب أو المواشي أو الغنم أو الحيوانات الأخرى أو الطيور أو الأفاعي أو العقارب أو الأحلام والمنامات، أو من ظهور النار أو من الدخان أو من نماذج طفو الزيت فوق الماء، أو من الممارسة الجنسية للبشر، أو من الولادات الوحشية، وقد رتبت هذه الحالات من الفأل بشكل تتابع طويل اتخذ في المستقبل، على المدى البعيد من الزمن شكلاً رسمياً أو دينياً.

وقد عرفت مثل هذه النصوص بشكل تقني كسلاسل لكل واحدة منها اسمها الخاص ووضعها الخاص مثلاً: إذا كانت المدينة مبنيَّة على تلة إلخ..

ولكن الحقيقة أننا نحتاج لصفحات عديدة لنعطي أمثلة على كل نوع من الأنواع الرئيسية ولكن فيما يلي نوضح بعض هذه الأشكال:

openkandil.com

إذا رأى أي رجل مناماً يظهر فيه كأنه من صانعي الأختام فإن ولده سوف يموت

وإذا رأى نفسه يقوم بعمل قصار للنسيج بواسطة النقع أو الإحماء

فإذا كان ذلك الرجل فقيراً فإن ذلك يعني: أن المصائب سوف تطارده ولن تصيبه.

إذا صب الإنسان الماء على باب داره واتخذ الماء المصبوب بشكل أفعى.

فإن هذا الرجل سوف يمارس شيئاً من الأفعال الشريرة.

وإذا رأى المرء نفسه مقطراً بالثاليل.

فإنه سوف يجد طعاماً يأكله إذا حدثت مجاعة في بلده.

نصوص تعليم الكتبة

لقد كانت هذه المرتبة الثانية لأهم مجموعة من النصوص وأصلاً كانت هذه عبارة عن مضاعفات مصاحبة للمعرفة التقنية الأساسية المطلوبة لتأهيل الكتبة في اللغة الأكادية والسومرية.

وكانت هذه تشمل قوائم من العلامات المسمارية مع تفاسير وقوائم مشابهة، وقوائم من الكلمات السومرية أو الأجنبية مع ترجمات أكادية ونصوص مكتوبة بلغتين: لغة سومرية ولغة أكادية مشابهة في أساسها لموسوعة روجيه (**rogct's Thesayus**).

obeikandi.com

الطقوس والابتهالات

تشمل هذه الرجاء المباشر من الآلهة وما ندعوه طقوساً دينية وسحرية لتقديم الحماية ضد الشر أو لإطلاق سراح شخص من تلك القوى الشريرة، وقد كانت بعض هذه النصوص مخصَّصة للطقوس الملكية الرسمية بينما تطبق الأخرى على فرد من الأفراد المهددين بالمصائب أو المصابين بها.

ولقد ذكرنا بعض المقتطفات من هذه الفئة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب والنصوص التي نحن بصدَدِها تشمل سلسة مستعملة ضد عمل السحر، وأخرى ضد الأرواح الشريرة التي كانت مخفيَّة وغير ظاهرة وباستطاعتها أن تهاجم الإنسان في أي زمن وفي أي مكان، وهناك سلسلة ثالثة تحمل اسم الحرائق وهي مأخوذة من الابتهالات والطقوس المصاحبة لهذه الظواهر.

وكانت تستعمل لعلاج أي رجل يشكو من مرض يظن أنه قد أصابه من دخول إحدى الأرواح الشريرة إلى جسده نتيجة لارتكابه إحدى المنوعات الدينية أو المحرمات أو نظراً لاقترافه ذنباً من الذنوب، وهناك مجموعة خاصِّة تعيَّن وتحدد أسباب الإصابة وتشمل الذنوب التي نصنِّفها حسب معاييرنا الحديثة بأنها خرافات ضمن المجتمع والدين ومن الممكن أن يكون الأذى ناتجاً:

عن الممنوعات الشريرة التي تناولها في طعامه.

وعن كثير من الأعمال السيئة والذنوب التي ارتكبها.

وعن تفريقه جماعة من الناس

وعن الجماعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي فصلها بعضها عن البعض الآخر.

وعن عدم احترامه لأحد الآلهة وإحدى الآلهات

وعن حنثه بوعد قدَّمه من قلبه وفمه ولم ينفِّذه.

openkanal.com

وهنـاك قـسم مـن هـذه السلـسلة يـشير بـشكل حـازم إلى الآثـام الاجتماعيـة والعرقية واعتبارها بسبب من الأسباب إصابة الإنسان بالأذى وهذا القسم يدعو إلى التخلص من:

أن فلاناً الفلاني، ابن فلان الفلاني وآلهة فلان الفلاني

وآلهتـه الفلانيـة وإن أسمـاء فـلان الفلانـي مـذكورة بالـضبط في الـنص (بعـد الدعوات والابتهالات يذكر اسم الشخص الصريح)

وفلان الفلاني هو مريض ومضطرب البال

وهو الذي فرق الابن عن أبيه

والذي فرَّق الأب عن ابنه

والذي فرَّق الابنة عن أمها

والذي فرَّق الأم عن ابنتها

والذي فرَّق الكنَّة عن حماتها

والذي فرَّق الأخ عن أخيه

والذي فرَّق الصديق عن صديقه

والذي فرَّق الرفيق عن رفيقه

والذي لم يطلق سراح الأسير ولم يطلق سراح العبد

والذي لم يدع الرجل السجين وهو في السجن يرى ضوء النهار.

إن معالجـة الأمـور المـستعملة في سلـسلة سـحرية تـشمل طقـوس الـتطهير مـع استخدام السحر العاطفي، وإن المظهر المركـزي فيه هو أن الأشيبو تناول شيئاً من البصل أو التمر أو قطعة من الصوف وثم مزَّقها إرباً إرباً وألقاها في النـار في الوقت الذي يتلو بعض الابتهالات، وحالما كان البصل يقشر ويترك يحترق هكـذا كـان الشرف حسب الإنسان يقشر ويحترق ويتلاشى.

وهناك قسم من هذه الابتهالات كالآتي:

obeikandl.com

ابتهال: حالما يقشر هذا البصلة ويرميها في النار

ويلتهمها اللهب نهائياً

بحيث لن تزرع في حديقته

ولا تقف بإزاء خندق أو قناة للري

ولا تمتد جذورها داخل الأرض

ولا يظهر لها أغصان ولا ترى الشمس

ولا تصل إلى مائدة أحد الآلهة أو أحد الملوك

وهكذا أرجو أن يقشر المرض الذي أصاب جسمي ولحمي وأوردتي كما قشّرت هذه البصلة

وأرجو أن تلتهم النار آلامي في هذا اليوم.

الأساطير والملاحم (القصص البطولية)

هناك طبقة من النصوص البابلية والآشورية تروق للقارئ العادي في هذه الأيام، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض مساهمة أهالي منطقة ما بين النهرين في هذا الإعجاب.

والحقيقة أن الأساطير والقصص البطولية كانت متخلفة بالنسبة لنصوص الفأل والأدب المدرسي في عدد الألواح الموجودة في مكاتب كيونيجيك، ويدخل في هذه الفئة نحو أربعين نصّاً.

إنَّ التمييز ما بين الأساطير والملاحم أي: القصص البطولية هو أن الأساطير تعالج الأنشطة على المستوى الإلهي والديني، بينما تهتم الملاحم بأعمال الأبطال ومع أنها تحتوي على كميات كبيرة من مواضيع ما وراء الطبيعة إلا أنها لا تخرج عن المستوى الإنساني.

ولقد أنتج بحث أصول وهدف الأساطير ولا يزال ينتج كميات واسعة من التخمين الذي ليس هناك من مجال لبحثه هنا.

obeikandl.com

ولكن من الواضح أنه وبالنسبة لبابل القديمة (التي أخذ الآشوريون أساطيرهم منها) من الممكن تمييز مظهرين من مظاهر الأساطير:

أحدها: تفسير حول النظام في العالم.

والآخر: تقرير التوترات التي سوف تظهر على المستوى السياسي وحتى الشخصي.

وقد اشتملت الموضوعات الخاصة بالأسطورة على المجالات التالية:

وأصل هذا الكون والخلافات بين الآلهة وخلق الإنسان والنظام الاجتماعي.

إن أهم أسطورة وجدت في منطقة ما بين النهرين في الألف الأول كانت أسطورة الخلق التي ارْتَكز عليها عيد رأس السنة في بابل.

وقد اشتمل هذا على نُتف من عدد من الأساطير الأقدم عهداً والتي تمَّ جمعها وتجويدها بقصد تمجيد مردوخ إله بابل.

ولقد قدمته الأسطورة كإله صغير ولكنه جبَّار وقد تغلب على قوى الفوضى التي كانت بشكل التنينة تيامات وجنودها، ولذلك فقد وهبت الآلهة السيادة لمردوخ في مجتمع الآلهة التي كانت حكراً على الآخرين.

وقد كانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى بابل وهي المدينة التي كانت المجليَّة بالنسبة لكثير من المدن الأخرى التي كانت تعود في أصولها إلى زمن السومريين.

انتقلت إلى بابل المكانة والهيبة كمركز من المراكز الدينية الأشد احتراماً.

ولقد اقتبس الآشوريون تلك الأسطورة، ولكنها بدورها سبَّبت لهم مشكلة لاهوتية، فقد ادعوا أن إلههم القومي آشور احتفظ بالقوة العالمية وهذا غير منسجم مع اللاهوت البابلي الذي يَنُصُ على سيادة مردوخ، ولقد حلَّ الآشوريون هذه المشكلة بأن استبدلوا مردوخ بالإله آشور خلال تلك الأسطورة.

لقد كانت الملحمة العظمى في كل من بابل وآشور هي ملحمة جلجامش.

obeikandi.com

وهناك شاهد جيد يشير إلى أنه كان هناك شخص اسمه جلجامش وقد كان حاكماً على مدينة أوروك (أبريش) في أوائل الألف الثالث ولقد أنشئت عدة ملاحم حول هذا الرجل كتبها جماعة من الكتبة السومريين في الألف الثالث.

وفي أوائل الألف الثاني ظهر شاعر بابلي عظيم استلم هذه الملاحم السومرية وترجمها إلى اللغة الأكادية وجمعها كلها معاً بأسلوب ذكي ليشكل ملحمة واحدة عظيمة، حتى أنه تدخل في قصة الطوفان التي لم يكن لها علاقة بجلجامش، وهناك عدة مواضيع ثانوية في هذه الملحمة ولكن السمة الأساسية التي تجري وتستمر فيها هي مشكلة موت الإنسان ومحاولة الإنسان أن يساوي نفسه مع الآلهة الخالدين، فضلاً عن الفشل المحتوم لهذا الهدف عند انحدار الإنسان في هاوية الشيخوخة والموت، ومع ذلك وفي النهاية ينتصر جلجامش والإنسانية التي يمثلها جلجامش معبراً عن منجزات البشر الخلاقة.

وقد كانت هذه الملحمة معروفة خلال منطقة الشرق الأدنى القريبة، وذلك طبقاً لما كنا نعرفه من مقاطع من النصوص التي وجدت في عدة أماكن بما فيها فلسطين الواقعة خارج منطقة ما بين النهرين، ولا عجب أن تتمثل بوجود عدة نسخ منها (ولكنها ليست كاملة) في مجموعة كويونيجيك.

ونحن لا نعرف ما هي الأغراض التي خدمتها ملحمة جلجامش بالنسبة لآشور، وليس هناك من سبب أن نفترض أنها قد استعملت في الطقوس، ولكن دون أي رموز درامية، ويمكن أن نخمن أن هذه الملحمة كانت تتلى أثناء الحفلات في القصور الملكية، ولكن ليس هناك من شاهد ملموس يؤيد هذا الرأي.

تشتمل نصوص كيونيجبك معظم الملاحم الأخرى المعروفة من بابل، ولكن هناك ملحمتين قد تمَّ تأليفهما في آشور ولكنهما لم تكونا تقارنان مع ملحمة جلجامش في عمقها وفي قيمتها الأدبية.

ولكن كلتيهما قد خلدتا انتصارات ملوك آشور في الفترة المتوسطة، وفي هذه الحالة نحن نتعرف على هدفهما، وقد كان هذا الهدف هو الدعاية فقد كان لهما

غرض سياسي ديني وهو إظهار حادث استيلاء آشور على بابل بأنه كان طبقاً لرغبة الآلهة.

أدب الحكمة

تمثل هذه الفئة من الأدب القديم في الشرق الأدنى المعروف لدى الشعراء الغربيين، ما كتب في التوراة عن هذا الموضوع مثلاً: سفر الأمثال، سفر أيوب، سفر الجامعه.

ولا نعلم عن أي عمل من هذا النوع كان أساسه آشور، ولكن معظم أدب الحكمة البابلي كان موجوداً في آشور، وما عدا وجود مثل عربي في مقتبس من الرسائل فليس هناك أي دلالة أن مثل هذه النصوص قد لعبت دوراً مرموقاً في الحياة الآشورية والفكر الآشوري، ولم تكن الأمثلة الرائجة في آشور لتخرج عن الدوائر الكتابية المحدودة.

ولكن هناك ثلاثة أعمال ذات أهمية جوهرية فلا يجوز إغفالها.

الأول: هو تأليف ما يدعى (ألا سوف أمدح إله الحكمة) حيث نرى المتكلم في مرتبة الأمراء المرموقة، ولكنه يجد نفسه مهجوراً من قبل الآلهة ويُطْرَد من الوظيفة والممتلكات، ويصاب بالأمراض والألم، ومع ذلك فهو يصرُّ على أنه لم يهمل واجباته تجاه الآلهة، وهكذا فإن النص مؤلف نوعاً ما من الامتحان كما هو في سفر أيوب التوراتي، وبالنسبة لمشكلة الشر فهو في مستوى أدنى بكثير.

وفي النهاية نقول: إنه من الممكن نشوء نزاع نظراً لأنه ليس بمقدور البشر أن يعرفوا إرادة الآلهة المخفيّة، إن ما هو مناسب للإنسان ربما كان ذنباً بالنسبة للآلهة. وما يبدو حقيراً أو خسيساً بالنسبة للإنسان ربما كان مناسباً بالنسبة للآلهة، ولكن من هو الذي يعرف إرادة الآلهة في السماء.

وهناك عمل آخر معروف (التبرير البابلي للاهوت البابلي) وهذا ظهر بشكل حوار جرى بين شخص متألم وصديقه، يشكو المتألم من الظلم الذي يكتنف الحياة.

ولكن الصديق يقدم أجوبة مبتذلة عن روح التدين البابلية التقليدية وعندما يشير المتألم إلى أمثلة عن أولئك الذين خدموا الآلهة دوماً ومع ذلك فإنهم يتألمون ويصادفون الصعاب، فإن الصديق يؤكد أن التقيد الكامل بالتقوى وبالتديّن ينبغي أن يكافأ بالخير والازدهار، وعندما يشير الشخص المتألم إلى وجود رجال أشرار ولكنهم ناجحون ومزدهرون، فإن الصديق يؤكد له أن هؤلاء سوف في النهاية ينالون عقاباً على أعمالهم السيئة دون شك.

وهناك تأليف آخر يدعى (حوار حول التشاؤم) وهذا يمثل حواراً بين أحد الأسياد وأحد العبيد الذين يملكهم هذا السيد.

وهنا يقترح السيد إعلان مجموعة معيَّنة للعمل، ولكن العبد يوافق بشكل باعث على الغثيان، وعند ذلك يغيِّر السيد رأيه فوراً مشيراً إلى الغباء الذي عرضه في اقتراحه الأول، وعندها يتغيَّر رأي العبد ويقدم أفكاراً تدعم وجهة نظر السيد الأخرى، وهكذا تبين أن هدف القصيدة هو الإشارة إلى أن الأنشطة البشرية هي في غاية التفاهة.

أصناف أخرى من النصوص

هناك نصوص أخرى كثيرة مأخوذ بعضها من مجموعة كيونيجيك وبعضها من مواقع آشورية أخرى ليس أهلها من آشور ولكنها لا تتناسب بسهولة مع أي فئة من الفئات الرئيسية الأخرى.

مثلاً القصة المعروفة باسم (الرجل الفقير من نيبور) وهي تتحدث عن رجل فقير قد غشَّه حاكم المدينة، فلهذا استعمل هذا الرجل الفقير وسائل ذكية للحصول على وسائل الانتقام.

obeikandl.com

وقد ذكرنا هذه الحادثة في فصل سابق وفي مناسبة أخرى، وهناك على الأقل نصَّان آشوريان يعودان إلى القرن الثامن أو أوائل القرن السابع وهما يتَّصفان بالميل نحو الدعاية السياسية ضد بابل تحت ستار ديني، كما وجد نص متعاطف مع البابليين.

ويحتوي أحد النصوص المؤثرة وهو من أصل آشوري قصيدة من الشعر حول حملة سرجون وقد اقتبسنا من تلك القصيدة بعض أبيات بشكل رسالة إلى الإله آشور وهناك رسائل من هذا النوع معروفة.

وليس لدينا سوى مثال واحد عن نصوص تشمل عقد معاهدات مع الأتباع، أو شرعة تحدد بعض الامتيازات الخاصة التي سوف تتمتع بها مدينة آشور، وهناك نص يتناول تدريب الخيول ولكن هذه القائمة لم تكتمل ولن تكتمل، وحتى القائمة الكاملة لن تكون نهائيَّة نظراً لأن هناك مئات الألوف من الألواح المسمارية التي لا تزال مجهولة ولم يقرأها أحد، وهي محفوظة في متاحف العالم.

وهناك أعداد أكبر لم تكتشف بعد ولم تَجْرِ أي حفريات بالنِسْبَة لها ولهذا فمن الممكن أن تبرز أي نصوص تقدِّم لنا أشياء جديدة كليّاً بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة.